

الطيف التنويري .. والمراوحة في مأزق ما بعد الصحوة

د. مسفر بن علي القحطاني

رئيس قسم الدراسات الإسلامية والعربية

شهدت الساحة السعودية خلال السنوات العشر الأخيرة حراكا فكريا وثقافيا واجتماعيا أخذ حظه في التوسع والامتداد الأفقي والعمودي ليشمل كافة التيارات على الساحة بكل شرائحها الاجتماعية والفكرية بفعل ثورة الجياع نحو الإعلام الفضائي والمعلومات الإلكترونية المتدفقة والاتصالات اللامحدودة , فنهم الجموع منها بغير وعي صحي للوصول إلى حالة الشيع المفرط لتناسي السنوات العجاف من القحط الفكري والاحتكار المعرفي والوصاية على السوق الفضائي . وما زالت سكرة النهم مسيطرة على الكثير من أفراد المجتمع واعتقد أن صحوة للعقل والإدراك سوف تفجأنا بآثار وخيمة لهذا الانكسار الشيق لأبواب الثوابت الدينية والمباديء الخلقية والاجتماعية..

والفكر الصحوي في مسيرته الماضية لم يكن بمنأى عن هذا التأثير بل عصفت به الرياح وألقته عوامة الانفتاح متكشفاً أمام ساحات النقد و محاكم الاتهام فبدأ يلتفت إلى نفسه ويصحح مساره وفق التغيرات الكبيرة التي طرأت على المجتمع في السنوات الأخيرة و الأزمات الحضارية التي لم يلق لها بالا .. فلم يعد نقد الصحوة يأتيها من اللادينيين أو العلمانيين - كما كان يطلق في السابق - بل أمتنن نقدها الصديق الحب قبل العدو المتربص , وهذا النقد لو احسن استغلاله فسيوفر لها رصيد هائل من المخارج والحلول .. فالصحوة الإسلامية قبل أزمتها الراهنة كانت بحاجة إلى صحوة تقويمية لأن الجموع الكثيرة والمشاريع الكبيرة لم تعط الوقت الكافي للمحاسبة والمراجعة والتصحيح لأن شهود اللحظة الحاضرة لجموع المستمعين وهتافات المتحمسين أنست الماضي الحامل بأخطائه وأغفلت المستقبل المثقل بمفاجأته..

.. فالنضج والخبرة و الأزمات الواقعة و التحديات المختلفة والتعامل مع الجماهير و السلطات المختلفة كلها محكات حقيقية وامتحانات صعبة لكل فكر إصلاحى .. وياعمال بسيط للفكر والذاكرة نجد في التاريخ القديم والحديث نماذج عديدة قد فشلت أو نجحت في هذه التحديات .. فالتاريخ في كثير من مجرياته يعيد نفسه لأن مساره محكوم ضمن تلك النواميس الكونية للأنفس والمجتمعات ..

فالحالة الإسلامية وفق المتغيرات الحالية لا تخرج عن كونها ظاهرة صحية تمثل مرحلة من مراحل النمو الفكري والعمرى الأشبه إلى حد كبير بنمو الفرد الإنساني ودورته المتقلبة في الحياة .. وأعتقد أن الضمانة لتجاوز هذه المرحلة من دون اضطرابات أو معوقات لا يتم بشكله الصحيح إلا بالتزام أدب الخلاف وقبول التعددية المذهبية والفكرية وعدم حصر الحق في رؤية أحادية وضرورة التنوع والتكامل في البرامج الإصلاحية والغايات الحضارية.. وما لم نسع إلى خطاب واعي ومنهجية جديدة للتعامل مع هذه المتغيرات وإلا كانت النتيجة المزيد من التنشيط والافتراق الخموم وتسلط قوانين الغاب و عودة التطرف و الدوغمائية بكل اتجاهاتها المتعاكسة..

بعد هذه المقدمة الجملية لواقع الصحوة في المملكة وتحدياتها الراهنة يمكن تحليل البداية التي نشأ بها الفكر التنويري والولادة المتأزمة التي صاحبت خروجه , فالغايات الأولى لنشأته كانت من أجل إيجاد مخرج تصحيحي للانغلاق والتقليد الفقهي والتحزب والتعصب العاطفي للجيل الصحوي , ومع تطور خطاب العنف والتكفير وأحداثه الدامية , ساحت الفرصة للتنويريين لاستثمار هذه الملفات المعقدة والمغلقة منذ زمن بفتح الباب على مصراعيه للنقد وتصفيات الحسابات مع خصوم اليوم و رفاق الأمس , فاندلعت معارك من الردود شهدتها ساحات الإنترنت والمنتديات الثقافية وكانت المبررات للنقد واقعية والشواهد له حاضرة ونواتجها شاهدة لكن طغت المبالغة والانتقائية في توصيف ذلك الواقع .. ومع ترسخ ثقافة النقد والانفتاح الفكري للثقافات العالمية وتبني البعض اجتهادات خاصة موهلة في الشذوذ بدأ البعض في السير نحو تطرف معاكس كان سبباً في تمييز الطيف التنويري و تباين اجتهادات أفرادها والمجاذب البعض نحو الوهج الليبرالي من خلال منابره الإعلامية والثقافية المجزية ..

إن تباين ألوان الطيف التنويري وتنوع مشاربه الفكرية في وقت وجيز يثير الفكر للمراجعة والاستفادة من الفترة الماضية . وقد ساحت في ذهني بعض الأفكار وجاءت من غير انتظار أو تأمل يكفي . وأخص بها التنويريين الذين يصفون أنفسهم بالاعتدال وينطلقون من مرجعية إسلامية ورؤية شرعية في قضايا الأمة ومستجداتها الفكرية، أوجزها فيما يلي:

- ١- أرى أن الحل ليس دائماً في القيام على ركام الآخرين والبدء بمحو المخالفين، وقبول الآخر ليس ثقافة تكذب وتسطر من أجل التنظير والتشدد بها في الحافل , بل هي نمط فكري وعادة يتطبع عليها سلوك الفرد الإنساني ولا شك أنها تحتاج منا إلى تربية راشدة وتعالى على حظوظ النفس العاجلة وكلنا يدعي وصلاً بليلي والمواقف تصدق هذا الوصال أو تكذبه .
- ٢- المتغيرات الدولية بتحدياتها المختلفة تقتضي أن نعيد فقه أولويتنا وترتيب سياساتنا وتحجيم خلافتنا تجاهها . والتحديات الخارجية لا تميز أطرافنا المختلفة ولا تعترف إلا بالتيار الذي تراهن عليه لتحقيق مصالحها وتبرير سياساتها والمغازلات الخفية للإسلام الليبرالي أو الحدائي التنويري هي من باب سياسة العصا والجزرة التي أكلنا بها - مرراً - يوم آكل الثور الأبيض .
- ٣- تبني التيار التنويري ثقافة التسامح والحرية والعناية بالعقل والفكر والانفتاح على الغير مهما كان .. كلها معاني جميلة ورائدة ولكن الدعوة إلى التسامح لا تحصل مع النقد اللاذع وإثارة الماضي والتنقيب عن أخطاء الغير مهما صغرت ودقت . والحرية من غير شعور بالمسؤولية وإدراك لأمانة الكلمة تمرد وانفلات وربما تعيق مواصلة البناء . كما اعتقد أن من النضج العقلي أعمال الأولويات وترتيب درجة المشكلات والأزمات وأثارها على الفرد والمجتمع . فليس من المعقول ابتسار كل مشكلاتنا الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وربطها بتيار ديني معين ونمط في التفكير كان له اعتباره المقبول في زمانه ومكانه وظرفه.

٤ - اعتقد أن من السابق لأوانه الحكم النهائي على فكر مرّ ببعض الظروف الاستثنائية ولم تتضح إلى الآن مشاريعه الإصلاحية والتنموية والفكرية خصوصاً أن مرحلة الانكفاء وعدم الائتلاف بين أفرادها والنخب الصحوية سوف يبطأ ما يتمخض عنه الجبل.

إن هذه المرحلة المؤثرة التي يمر بها التيار الإسلامي بكل أطيافه المعقدة تقتضي أعمال فقه المصلحة بدرجاتها المختلفة وأي حالة إقصاء للآخرين عن خارطة العمل للدين تمزيق لجغرافيا الصحوة المباركة وتكريس للضعف والوهن العام في الأمة .